

## المعرفة الصوفية عند ابن عطاء الله السكندري: موضوعها وطريقها.

أ/ربيعي ميلود.  
المركز الجامعي بغرداية

تمهيد.

- 1/ تعريف المعرفة الصوفية وموضوعها.
- 2/ المعرفة الفطرية في النفس.
- 3/ وسيلة المعرفة.
- 4/ منهج المعرفة الصوفية.
- 5/ السالك والمجذوب.
- 6/ العناية الإلهية في الوصول إلى المعرفة.

### تمهيد:

يتدرج السالك في المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل مجاهداته لنفسه في مقاماته وأحواله، وبعد هذا يصل السالك إلى المعرفة بالله، وهذا الوصول يكون في حال الفناء، فيفنى السالك عن نفسه ويبقى بمعرفة ربه، إذ يبين ابن عطاء الله أن الفناء إذا دام للسالك - وهو قلما يثبت ويدوم - يصير عادة راسخة وهيئة ثابتة، ويعرج بالسالك إلى العالم الأعلى، وهناك يطالع الوجود الحقيقي الأسمى، وينطبع فيه نقش الملكوت، ويتجلى له قدس اللاهوت، وأول ما يتمثل له من ذلك العالم جواهر الملائكة، وأرواح الأنبياء والأولياء في صورة جميلة تفاض عليه بواسطتها بعض الحقائق، وذلك في البداية، إلى أن تعلو درجة السالك عن المثال، ويكافأ بتصريح الحق في كل شيء، فإذا تحقق السالك في فنائه بمعرفة الحق، فقد تحقق بالبقاء بالحق<sup>1</sup>.

يسمى السالك المتحقق بالمعرفة واصلا، ووصوله إلى الله هو وصوله إلى المعرفة به، وهوليس وصولا بالمعنى المفهوم بين ذوات الأشياء، فإن الله يجل عن ذلك، يقول ابن عطاء الله في هذا للسالك في الحكمة 213: «وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن

1 - ابن عطاء الله السكندري، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى 1417هـ-1996م، ص 65.

يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء»<sup>1</sup>. وبهذا ينزه الصوفية الله تعالى عن المفهومات الإنسانية. وإذا وصل السالك إلى المعرفة بالله، فقد وصل إلى نهاية طريقه، ولم يعد له مرقى ولا مرمى، فالمعرفة بالله إذا غاية السالكين، ومنتهى سير السائرين<sup>2</sup>.

وفيما يلي من هذا المقال نتبين فهم ابن عطاء الله للمعرفة بالله من حيث حدها وموضوعها ووسائلها وأقسامها وسائر ما يتعلق بذلك.

#### 1- تعريف المعرفة الصوفية وموضوعها:

يعرف ابن عطاء الله المعرفة الصوفية أنها: «إدراك الشيء في ذاته وصفاته على ما هو به»<sup>3</sup>، كما يقول: «أن معرفة الباري تعالى أعسر المعارف وصفاته»<sup>4</sup>، ومن ثم فهي على قسمين<sup>5</sup>:  
- المعرفة العامة: وهي المفروضة على سائر المكلفين من إثبات وجوده وتقديسه عن ما لا يليق به ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه تعالى<sup>6</sup>.

- والمعرفة الخاصة: وهي حال عن شهود ذوقي<sup>7</sup>. فالفرق بين العالم والعارف، أن العارف من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله عن شهود، والعالم من أطلعه الله على ذلك عن يقين لا عن شهود<sup>8</sup>.

فالمعرفة الصوفية موضوعها هو الذات الإلهية من حيث صفاتها وأسمائها وأفعالها، ومن ثم فإن معرفة وجود الله تعالى تقصر دونه مدارك البشر سواء حساً أم عقلاً أم قلباً، لأنها مدارك محدودة، ولذا قال ابن عطاء الله: «أن المعرفة بالله أعسر المعارف، وإدراك موضوعها على التحقيق من الأمور التي يقصر دونهما البشر»<sup>9</sup>.

1- ابن عباد الرندي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت792هـ)، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م، ص259.

2- المصدر نفسه، ص259.

3- ابن عطاء الله، المفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتح، ص46.

4- المصدر نفسه، ص46.

5- المصدر نفسه، ص46.

6- المصدر نفسه، ص46.

7- المصدر نفسه، ص46.

8- المصدر نفسه، ص46.

9- ابن عطاء الله، التقصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، القاهرة: مطبعة محمد علي الصبيح وأولاده، الطبعة الأولى 1950م، ص38.

وبهذا يقطع ابن عطاء الله أن المعرفة الصوفية من حيث الموضوع أشد ما تكون غموضاً، ولا يمكن الوصول إلى شيء من التفصيل في ذلك، ما لم يتأت بسلك طريق التصوف وذلك لخصوصيات منها: - أن الحقائق التي تتكشف للصوفي في خلواته حقائق فردية، لا يمكن بحال أن تتصف بالعموم.

- وما يتحدث عنه الصوفي من المعارف يكون بلغة الرمز والإشارة لعدم وفاء الألفاظ للمعاني العادية فضلاً عن معارف الصوفي. - يغلب على عبارة الصوفي الإبهام والتعقيد، مما يتعذر على الإنسان العادي أن يشارك الصوفي في تذوق ما يعبر عنه من معارف ولوشيء من التفصيل.

## 2/ المعرفة الفطرية في النفس:

استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝<sup>1</sup>﴾، يقرر ابن عطاء الله أن المعرفة فطرية في النفس وذلك لسبق وجودها قبل عالم الجسد، حيث عرف الإنسان ربه وتجلي له واستطقه وألهمه الإقرار بربوبيته، فشاهده الإنسان ووحده، وأخذ عليه عهداً بذلك، في عالم الذر قبل اتصال الأرواح البشرية في الأبدان<sup>2</sup>، قال في الحكمة 257: «أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بالهيته الظواهر، وتحققت بأحدثته القلوب والسرائر»<sup>3</sup>.

فلما هبطت الأرواح في الأبدان احتجبت المعرفة الفطرية بحجاب البشرية الكثيف، فستر الله بذلك سر خصوصيته في عبادته، قال ابن عطاء الله في الحكمة 108: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية»<sup>4</sup>. والمعنى: «أن من حكمة الله تعالى أن ستر سر خصوصيته التي خص بها أوليائه من المعارف والأسرار، بظهور وصف البشرية أي الأحوال التي تعرض للبشر، فقد يكون بعض الأولياء خواصاً مثلاً ليستر خصوصيته بهذه الصفة فلا يعرفه كثير من الناس، ولولا ذلك لكان سر الله متبذلاً غير مصون، في حين ظهر بعظمة الربوبية في

1 - سورة الأعراف الآية 172.

2 - ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، خرج آياته وأحاديثه خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م، ص 15.

3 - ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية، ص 321.

4 - المصدر نفسه، ص 149.

إظهار أحوال العبودية، وهي الأحوال التي تطرأ عليهم فتقتضي  
افتقارهم إلى ربهم فبجزك تتحقق قدرة مولاك وبفكرك تتحقق غناه،  
وبذلك تتحقق عزه <sup>1</sup>.

ويعبر عن ذلك ابن عطاء الله في الحكمة 155 فيقول: «ستر  
أنوار السرائر بكثائف الظواهر، إجلال أن تبتذل بوجود الإظهار وأن  
ينادي عليها بلسان الاشتهار» <sup>2</sup>، والمعنى: «أنه سبحانه ستر أنوار  
قلوب أوليائه بالأحوال التي يتعاطونها كالصنائع لأجل صونها أن تبتذل  
ولذلك ترى أهلها يخلون بها إلا بالرمز والإشارة أدبا مع مولاهم  
وصونا لنفيس ما خولهم وأعطاهم» <sup>3</sup>.

لقد قرر الغزالي من قبل ابن عطاء الله أن المعرفة مركوزة  
في النفوس بالقوة كاليد في الأرض والجوهر في قعر البحر <sup>4</sup>، ومن  
الممكن أن يعتمد السالك إلى قلبه بالتطهير، ويرفع طبقات الحجب عنه  
حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله بلا اكتساب <sup>5</sup>. وذهب إلى هذه الفكرة  
أيضا الشاعر الصوفي المصري ابن الفارض <sup>6</sup>، حيث ذكر أن علم  
الصوفي الإلهامي من أعماق النفس التي تستمد من ذات نفسها  
وتقيضه على ذات نفسه، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

«وما هي إلا النفس عند اشتغالها بعالمها عن مظهر البشرية  
تجلت لها بالغيب في شكل عالم هداها إلى فهم المعاني الغريبة  
وقد طبعت فيها العلوم وأعلنت بأسمائها قديماً بوحى الأبوة

فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة  
تلقيته مني وعني أخذته ونفسي كانت من عطائي ممدتي» <sup>7</sup>  
وإذ قرر ابن عطاء الله أن المعرفة فطرية في النفس، فقد دللنا  
على أنها قبس من نوره تعالى، أودعه قلوب أوليائه وإنها لن تأفل أبداً،

1 - عبد المجيد الشرنوبى، شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الفتاح البزم، دار الهدى عين مليلة الجزائر،  
الطبعة الأولى 1991م، ص 90.

2 - المصدر نفسه، ص 115.

3 - المصدر نفسه، ص 115.

4 - الغزالي أبوحامد، الرسالة الدنوية، ضمن المجموعة الثالثة من رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية،  
بيروت، الطبعة الأولى 1414هـ-1994م، ص 40-39.

5 - الغزالي أبوحامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، تصحيح عبد العزيز السيروان، دار القلم، بيروت، ج 3  
ص 17-18.

6 - ابن الفارض: هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي (576-632هـ)،  
الصوفي المصري الأول بلا منازع، ورأس شعراء الصوفية من العرب. الموسوعة الصوفية رقم الترجمة 233.

7 - محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية 1985م، ص 179.

وذلك بخلاف المعرفة الناتجة عن طريق النظر والاستدلال بالآثار، فهي تأفل بأفول الآثار، قال في الحكمة 104: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ولذلك قيل:

إن شمس النهار تغرب بالليل — — — — — شمس القلوب ليست تغيب»<sup>1</sup> والمعنى: «أنه سبحانه أنار الظواهر أي المكونات بأنوار الكوكب والشمس والقمر التي هي آثار قدرته فنرى المكونات بذلك النور، ونأخذ منها ما ينفع ونحترز عما يضر، وأنار السرائر أي بواطن قلوب العارفين بأنوار أوصافه أي بالعلوم العرفانية والأسرار الربانية، لأجل ذلك أفلت أي غابت أنوار الظواهر فيذهب نور الشمس في الليل ونور القمر في النهار، لكونها ناشئة عن الحادث ولم تأفل أي تغيب أنوار القلوب والسرائر لكونها ناشئة عن الصفات القديمة»<sup>2</sup>.

فالمعبر عنها بالأوصاف أي: أوصاف الربوبية كالعظمة، والعزة، والجلال والجمال والكبرياء والكمال وغير ذلك من أوصاف الذات العليا، والذات لا تفارق الصفات<sup>3</sup>، واستشهد ابن عطاء الله ببيت معبر سابق لغيره، معناه أن شمس النهار وهي جملة الآثار تغرب بالليل، وكذلك شمس كل ظاهر تغرب بليله، كالحياء بالموت، والموجود بالفقْد، والغنى بالفقْر، والعزة بالذل، والقوة بالضعف، والقدرة بالعجز إلى غير ذلك، وأنوار قلوب أولياء الله لا كسوف لها ولا غروب<sup>4</sup>.

### 3- وسيلة المعرفة:

يعرف ابن عطاء الله العقل بأنه: الملكة المدركة للعلوم بواسطة الاستدلال، وهو وسيلة أهل النظر العقلي، ويعرف القلب بأنه الملكة المدركة للعلوم بواسطة الشهود الذوقي المباشر، فهو اللطيفة المدركة التي أودعها الله في الإنسان<sup>5</sup>، ويصفه بأنه موجب لا سالب إذ أنه يوصل إلا المعرفة الإيجابية اليقينية بالله<sup>6</sup>.

1 - ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية، ص 192.

2 - عبد المجيد الشرنوبلي، شرح الحكم العطائية، ص 86-87.

3 - ابن عجيبة أحمد الحسني (ت 1224هـ)، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، الطبعة الأولى، بيروت، المكتبة الثقافية، ص 198.

4 - أحمد زروق الفاسي، شرح حكم العطائية، تحقيق مصطفى مرزوقي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 164.

5 - ابن عطاء الله السكندري، تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى 1425هـ - 2005م، ص 28.

6 - ابن عطاء الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ص 93.

#### أ- استعداد القلب للمعرفة:

يبين ابن عطاء الله أن القلب كلما زهد في الدنيا وعدم من الهوى والحرص والأمل وازداد إيمانه تم توحيده، وإذا امتلأ بالتوحيد صار عرشيا وتنزه عن أوصاف البشرية تماما، وشرفت في الملأ الأعلى صفاته، واكتملت بنور اسم الذات بصيرته، وتخلق بأخلاق الله، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته، وصار محققا متبصرا فانيا في شهود المذكور عن ذكره، وذلك معنى الحديث القدسي: «لا يسعني عرشي ولا كرسي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي»<sup>1</sup>، ومعنى هذا الحديث أن قلب الإنسان - على حد تعبير ابن عطاء الله - لا يسع مساحة ولا خيالا ولا حسا ولا حكما، وإنما يسعه توحيدا وإيمانا وعلمًا ومعرفة وإيقانا ومحبة وإخلاصا، فضلا من الله وتخصيصا<sup>2</sup>.

وبهذا المعنى يصحح ابن عطاء الله المفاهيم فينفي ما يعلق بالذهن من التصورات تنزيها لله تعالى، كما ينفي عن الله الحلول في القلب أو التحيز في المكان، مبينا أن المعرفة أمر معنوي يتحقق به قلب السالك متى زهد في الدنيا وقهر شهواته، ثم إن التحقق بالمعرفة مرده إلى إرادة الله وفضله وتخصيصه لا إلى كسب العبد واختياره.

وعن استعداد القلب للمعرفة بالتركية والتصفية من الحظوظ والتوهمات والغفلات يقول ابن عطاء الله، في عبارة بليغة قوية في الحكمة 13: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟!، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟!، أم كيف يطمع في أن يدخل حضرة الله وهولم يتطهر من جنابة غفلاته؟!، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهولم يتب من هفواته؟!»<sup>3</sup>.

والمعنى: «أن القلب الذي طبعت في مرآته صور المكنونات فاشتغل بها، وصار مقيدا بالشهوات، فإنه لا ينال الأشواق ولا يدخل في حضرة الكريم الخلاق، لأنه لم يتطهر من غفلاته الشبيهة بالجنابة، فيمنع منها كما يمنع الجنب من المسجد الذي هو محل المناجاة والاستجابة، والاستفهام في الجمل الأربعة إنكاري بمعنى النفي، أي لا يكون إشراق القلب مع انطباع صور الأكوان التي هي كالظلمة في مرآته، أي محل ناظره الذي هو البصيرة لما في ذلك من الجمع بين الضدين، ولا يمكنه الرحيل إلى الله بقطع عقبات النفس مع كونه مكبلا

1- الحديث القدسي «لا يسعني عرشي..... ووسعني قلب عبدي» أخرجه الفتني في تذكرة الموضوعات رقم 30.

2- ابن عطاء الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ص 93-94.

3- ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية، ص 31.

بشهواته، ولا يدخل حضرة الله، أي دائرة ولايته المقتضية للطهارة مع كونه لم يتطهر من جنابة غفلاته، ولا يرجو أن يفهم دقائق الأسرار المتوقفة على التحرز من المعاصي مع كونه لم يتب من هفواته، لذلك فالمطالب أربعة: إشراق القلب، والرحيل إلى الحضرة ودخولها، والإطلاع على أسرارها، وكل وسيلة لما بعده. والموانع أربعة: انطباع صور الأكوان في عين القلب، والتكبل بالشهوات، وعدم التطهر من جنابة الغفلات، وترك التوبة من الهفوات»<sup>1</sup>.

وفي إشارة من ابن عطاء الله إلى الواردات الإلهية التي ترد على القلوب، ولكنها تمنع من الدخول إليه، وذلك لانشغاله وحشوه بما سوى الله تعالى، فيقول في الحكمة 205: «ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت»<sup>2</sup>، ويقول في الحكمة 206: «فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار»<sup>3</sup>، والمعنى: «.. كثيرا ما ترد عليك أنوار عالم الغيب لتغنيك عن عالم الشهادة فتجد قلبك محشوا بصور عالم الشهادة فترحل عنك وتترك محبوبا في يدها، ففرغ قلبك أيها الفقير من الأغيار وهو ما سوى الله، بحيث لا يتعلق قلبك بشيء من الكون علويا أو سفليا، دنيويا أو آخرويا، حسيا أو معنويا، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم ولم يبق إلا محبة مولاه فإنه يملأ بالمعارف، حيث يكشف عنك حجاب الوهم، ويذهب عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنوارا ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية..... فالمعارف هي علوم المعرفة، بحيث يعرف في كل شيء، ولا ينكر شيئا، والأسرار أذواق تلك العلوم، فالمعرفة تكون أولا علما وآخر ذوقا»<sup>4</sup>.

#### 4 - منهج المعرفة الصوفية:

يتنوع منهج المعرفة الصوفية إلى نوعين: الاستدلال العقلي، والشهود الذوقي. قال ابن عطاء الله في الحكمة الأخيرة 264: «الفكرة فكرتان، فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار»<sup>5</sup>، والمعنى:

1 - عبد المجيد الشرنوبى، شرح الحكم العطائية، ص 26-27.

2 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 353.

3 - المصدر نفسه، ص 354.

4 - المصدر نفسه، ص 354-355.

5 - عاصم إبراهيم الكيالي، اللطائف الإلهية في شرح مختارات من الحكم العطائية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة 2003م - 1424هـ، ص 114.

«أن فكرة أهل التصديق والإيمان، هي سير القلب في ميادين الأغيار، فهم يتفكرون في المصنوعات، ليتوصلوا إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من سائر صفاته، وهم الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾<sup>1</sup>. وفكرة أهل الشهود والعيان، هي سير الروح في ميادين الأنوار، قد انقلبت الأغيار في حقهم أنواراً، والدلائل مدلولات، والغيب شهادة، وهم الذين أطلعهم الله على سر قوله تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>2</sup>..»<sup>3</sup>.

وأما اختصاص كل فكرة بأهلها، فمعناه: «أن أرباب الاعتبار هم عموم المؤمنين الذين لقلوبهم حياة، وأهل البدايات من سالكين الذين لم ينتهوا لمعاينة الحقيقية، وأرباب الشهود فهم العارفون على مراتبهم، الذين خرقت بصائرهم كل حجاب، فأبصروا الحق كرائي العيان»<sup>4</sup>.

ومن ثم فإن ابن عطاء الله بين أن منهج الاستدلال في المعرفة<sup>5</sup> الذي يستدل فيه العارف بوجود الكائنات على وجود صانعها، مستند إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>6</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾<sup>7</sup>، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ..﴾<sup>8</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>9</sup>.

أما منهج الشهود الذي يتوصل به صاحبه إلى المعرفة بالله بالذوق المباشر - ويسميه ابن عطاء الله أحياناً بمنهج الاستدلال بالصانع على الصنعة<sup>10</sup> - فمستند إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

1- سورة البقرة الآية 3.

2- سورة يونس الآية 101.

3- ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 437.

4- أحمد زروق، الشرح السابع عشر للحكم، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود شريف، دار الشعب 1405 هـ، ص 322.

5- ابن عطاء الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ص 101.

6- سورة يونس الآية 101.

7- سورة الفاشية الآية 17.

8- سورة البقرة الآية 164.

9- سورة الذاريات الآية 21-20.

10- ابن عطاء الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ص 101.

أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>1</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾<sup>2</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ قَاطِرٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>3</sup>.

فأما أهل المحبة وهم أهل الولاية العرفان، من أهل الشهود والعيان فهم يستدلون بالنور على وجود الستور، فلا يرون إلا النور، وبالحق على وجود الخلق فلا يجدون إلا الحق، وبقدرته على حكمته، فوجدوا قدرته عين حكمته، وحكمته عين قدرته، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه.

وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور، وبالخلق على وجود الحق<sup>4</sup>.

ويتلخص مضمون الحكمة 29 أنه: «بعدان وفرقان بين مرتبتهما، وإن اجتماعا في أصل المعرفة ووجه الاستدلال إذ لا يستوي من تعرف إلى الله بعقله، ومن تعرف إليه بنوره، بينهما من الحظ ما بينهما من الخط، وهذا باعتبار النظر في الخلائق بحقائق التوحيد بعد عقد الإيمان الواجب، إذ كلام القوم - أي الصوفية - في وجه أخص من كلام المتكلم والفقيه، فالمستدل عليه هو الذي يسبق لقلبه فعل الخلق ثم يفنيهم بنظره لما يقتضي نفي التصوف عنهم، كقولهم: يُعرف الله بنقض العزائم وتبديل الأوقات، إلى غير ذلك فافهم<sup>5</sup>»

فمن يستدلون عليه تعالى بمخلوقاته هم المريدون وأهل السلوك، ومن يستدلون به تعالى على المخلوقات هم المرادون أهل الشهود، إذ جعل وجود المخلوقات مستفادا من وجوده تعالى، فأثبت وجود الحوادث من وجود أصله، وهؤلاء هم أهل الشهود وأهل الجذب، الذين جذبتهم يد العناية إما ابتداء أوبعد السلوك وهم العارفون بربهم فلا يشهدون غيره، وحال من يستدل بالآثار والمخلوقات على وجوده فذلك من عدم الوصول إليه، لأن السالك يكون محجوبا بالآثار وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب، وإلا فمتى غاب الحق حتى يستدل بمخلوقاته عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار الناشئة عن قدرته هي التي توصل إليه<sup>6</sup>.

1- سورة فصلت الآية 53.

2- سورة النساء الآية 79.

3- سورة إبراهيم الآية 10.

4- ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم شرح الحكم، ص 77 - 78.

5- أحمد رزوق الفاسي، شرح الحكم العطائية، تحقيق: مصطفى مرزوقي، ص 78-79.

6- عبد المجيد الشرنوبلي، شرح الحكم العطائية، ص 40.

وشرح ابن عطاء الله هذا المعنى بنفسه فقال: «واعلم أن الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق، لا لمن يشهده لأن الشاهد غني بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليه كسببه تم تعود في نهايتها ضرورية. .. ومن أعجب العجائب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه، حتى توصل إليه؟ أم هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له؟ وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس لها ذلك من ذاتها لكن هو الذي ولأها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهي لمن وقف عندها ولم تتفد قدرته، عينُ الحجاب»<sup>1</sup>.

ويعتبر ابن عطاء الله أهل الاستدلال والبرهان كالعوام بالقياس إلى أهل الشهود والعيان، فيقول: «وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان، فولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار، فلاهل الولاية الأولى قوله تعالى: ﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾<sup>2</sup>، ولأهل الولاية الثانية قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ دَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾<sup>3</sup>، وأرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان، لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الأدلة؟ وكيف يكون معرفاً به وهوالمعرف له...؟!»<sup>4</sup>.

يسمى ابن عطاء الله المعتمدين على منهج الاستدلال العقلي - إذا كانوا من الصوفية - بالسالكين، كما يسمى المعتمدين على منهج الشهود الذوقي من الصوفية بالمجذوبين، وننبين فيما يلي الفرق بينهما.

##### 5- السالك والمجذوب:

تلخص لدينا أن ابن عطاء الله يقسم أهل التصوف بالقياس إلى المعرفة بالله إلى فريقين:  
- الفريق الأول "السالكون"، وهم الذين يستدلون بوجود آثار الله على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته.

1 - ابن عطاء الله السكندري، لطائف المتن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن، تحقيق عبد الحليم محمود، القاهرة: دار المعارف 1992م، ص 27-26.

2 - سورة فصلت الآية 53.

3 - سورة الأنعام الآية 91.

4 - ابن عطاء الله، لطائف المتن، ص 25.

- والفريق الثاني «المجذوبون»، وهم الذين يكشف الله لهم عن كمال ذاته كشفا مباشرا، فيعرفون الله منذ البداية، ثم يُردُّون من معرفة الذات إلى شهود الصفات، ومن شهود الصفات إلى التعلق بالأسماء، ثم من التعلق بالأسماء إلى وجود الآثار<sup>1</sup>.

يسمي ابن عطاء الله طريق السالكين في المعرفة بالترقي، وطريق المجذوبين بالتدلي، وإلى هذا الفرق بين طريق السالكين وطريق المجذوبين يشير في الحكمة 250 فيقول: «دل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه. فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره. والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، ولكن لا بمعنى واحد، فربما التقيا في الطريق: هذا في ترقيه، وهذا في تدليه»<sup>2</sup>.

والمعنى: «أن عباد الله المخصوصين بسر الخصوصية هم في سيرهم إلى قسمين:

منهم من يبدأ بالجذب ثم يرد إلى السلوك، ثم يدركه الجذب ثم يصحو. فأرباب الجذب يكشف لهم أولا من غير مجاهدة عن شهود الذات، فيسكن بشهود نورها، فينكر الوسطة أصلا، وينكر الشرائع إلا أنه مغلوب، ثم يرد من شهود الذات إلى شهود الصفات، فلا يرى إلا صفات الحق تكثفت وظهرت وينكر الأثر، ثم إذا شهد الصفات تعلق بالأسماء اللازمة لها، ثم يرجع إلى شهود آثاره فيقوم بأحكام عبوديته. والسالكون على عكس هذا، فيستدلون بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على وجود صفاته، وبوجود صفاته على وجود ذاته. فنهاية السالكين - وهي شهود الذات - بداية المجذوبين، ونهاية المجذوبين - وهي شهود الأثر - بداية السالكين ولكن ليس بمعنى واحد - أي ليس في اتجاه واحد - بل أحدهما نازل يشهد الأشياء بالله والآخر صاعد يشهد الأشياء بنفسه لله فربما التقيا في الطريق هذا في ترقيه، وهذا في تدليه فإذا وصلا معا اجتمعا في مقام البقاء.

والمتلقي أكمل من المتدلي في التربية، لأنه قاسى شدائد الطريق وأهوالها، بخلاف المجذوب فإنه كان محمولا وهونادر، إذ

1- ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 425.

2- ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية، ص 218.

الغالب على الناس السلوك ثم الجذب، والطريقة الشاذلية الغالب عليها الجمع بين الجذب والسلوك من أول قدم<sup>1</sup>. وفي تعريف مصطلحات هذه الحكمة يقول أحمد زروق: «الجذب أخذه الحق تعالى قلب عبده دون مهلة، بوجه لا يبقى فيه متسع لغيره. والكشف الإيضاح والبيان عن كمال الذات الكريمة، وما هي عليه من الجلال والجمال والعظمة التي تحار العقول في أدنى جزء من أسباب التذكير بها فضلا عن العلم بها، ومعنى كشفه تعالى للمجذوب عن كمال ذاته، هو أن يبدول قلبه من التعظيم والإجلال ما يستغرقه استغراقا لا يشعر معه معنى من المعاني ولا مبنى من المباني ولا يقع له تفصيل ولا علة، بل مجرد العظمة والجلال دون زائد فافهم»<sup>2</sup>.

ويقول أيضا: «أما السالكون جمع سالك وهو الطالب للتحقيق بالحققة من وجه العمل بالطريقة، ومعنى كون طريقه عكس طريق المجذوب من حيث الترتيب في العمل والشهود، إذ أول ما يبدول للسالك اتساع أفعال الحق سبحانه فيحصل له التعظيم من هذا الوجه ويكون حاله فيه إسقاط التدبير، وعمله امتثال الأمر والاستسلام للقهر بحالة لا يمكنه أن يخالفها في ذلك، ثم يبدوما تعلق به الأفعال من النسب الإلهية في الأفعال كالكرم والانتقام والرحمة وضدها وغير ذلك على تفاصيله، ويختلف عمله في ذلك على حسب ما بدا له من النسب جملة وتقصيلا.

فإذا انتهى إلى حد تعظيم الذات الكريمة، كان بساطه تعظيم الربوبية مطلقا في التزام العبودية، وبحسب هذا فنهاية السالك بداية المجذوب صورة ومعنى وإن اتفقا في الحقيقة فقد اختلفا في البساط»<sup>3</sup>. ويمكن تقسيم الناس إلى أربعة أقسام كما قال ابن عجيبة: «واعلم أن الناس في الجملة على أربعة أقسام: سالكون فقط، ومجذوبون فقط، وسالكون ثم مجذوبون، ومجذوبون ثم سالكون، فالأولان أي السالكون فقط والمجذوبون فقط لا يصلحان للتربية والإرشاد، أما السالك فقط فلأنه ظاهري محض، فلا نور له في باطنه يجذب به. وأما المجذوب فقط فلا سلوك عنده يسير به، والآخران يصلحان للتربية مع أفضلية الأول»<sup>4</sup>.

1 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 425-426.

2 - أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 309.

3 - المصدر نفسه، ص 310-311.

4 - ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 126.

وعليه فإن شهود المجذوب لله إدراك لا يستند إلى الحس وأدواته ولا إلى العقل وملكانته، بل هو إدراك وجداني مباشر يتم في حال الغيبة عن الحس أي الفناء، وكذلك ما لا يخضع للدراسة العلمية والتجريبية لخصوصيته المتميزة بالذاتية ولا ينفع فيه البحث من أجل الأحكام عليه بالإنصاف، ما لم يكن الباحث نفسه صوفياً تهيأ له مثل هذا الإدراك<sup>1</sup>.

#### 6- العناية الإلهية في الوصول إلى المعرفة:

بين لنا ابن عطاء الله أن الوصول إلى المعرفة يكون بالشهود الذوقي المباشر كالعيان وهو أكمل حالاً من الاستدلال العقلي بالبرهان، وإذا يفضل حال المجذوب على حال السالك مرد ذلك إلى القسمة الربانية والعناية الإلهية، التي لا تستند إلى علة ولا تقبل التعليل قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾<sup>2</sup>.

ومعنى ذلك أن الوصول إلى المعرفة بالله ليس بمجاهدات السالك وأعمال طاعاته المختلفة، لأنه لو كان كذلك لكان معللاً بإرادة الإنسان، وليست للإنسان إرادة حقيقية إلى جانب إرادة الله، ومن ثم يكون الوصول إلى الله بمحض عناية الله، ولكن ما الذي يمنع من أن يكون هناك من العباد من يخصصهم الله بهذه العناية من أول الأمر فيعرفهم بذاته معرفة مباشرة دون أن يكون لهم معاناة المجاهدات، ومقاساة الترقى في الأحوال والمقامات، والله لا يسأل عما يفعل<sup>3</sup>.

وبهذا يجعل ابن عطاء الله لفكرة العناية مكاناً بارزاً في منهجه الصوفي، ويذهب إلى أن المجذوب هو شخص اختصه الله بعنايته فعرفه بذاته من أول الأمر، وطوى له الطريق إليه، ففاته بذلك ما يكون في هذا الطريق من المشقات والمتاعب، وفي هذا المعنى يقول: «لا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله فسلکها مسرعاً إلى الله عجلًا، وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا، فإن المجذوب طويت له الطريق ولم تطوعه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها. ..»<sup>4</sup>.

1 - التفتازاني محمد أبو الوفا، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، طبعة الأنجلو، 1389هـ، ص 235.

2 - سورة الأنبياء، الآية 23.

3 - المرجع نفسه، ص 235.

4 - ابن عطاء الله، لطائف المنن، ص 111.

ولهذا اختص ابن عطاء الله والشاذلية الذين اقتفوا أثره من بعده بسلوك الجذب، حتى صار مذهبهم في المعرفة هو شهود الحق من أول قدم، أي بمعنى شهود الحق في بداية الطريق لا في نهايته، ويبين لنا الشيخ "أحمد زروق"<sup>1</sup> أن رتبة الجذب عند ابن عطاء الله وعند الشاذلية هي رتبة العارف على التحقيق، ولا كذلك رتبة السالك التي يحوم حولها الغزالي ومن نحا نحوه من الصوفية ممن يجعلون المعرفة بالله نهاية الطريق إلى الله لا بدايته، وطبيعي أن يفضل الشيخ "أحمد زروق" - وهو من الشاذلية أيضا - الاتجاه الأول في المعرفة، وهو اتجاه ابن عطاء الله، على اعتبار أنه يوافق الإيمان ويلتزم الطبع، ويحقق ما تهدف إليه الشريعة من تقوية اليقين والتحقيق بأعمال المتقين من أول الأمر، فيقول في قاعدة من قواعده: «تنوع الفرع بتنوع أصله، وقد تقدم أن أصل التصوف مقام الإحسان، وهو متنوع إلى نوعين: أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَرَاكَ، فالأول رتبة العارف، والثاني رتبة من دونه، وعلى الأول تحوم الشاذلية ومن نحا نحوهم، وعلى الثاني يحوم الغزالي ومن نحا نحوه، والأول - رتبة الشاذلية - أقرب، لأن غرس شجرتها مشير لقصد ثمرتها، ومبناها على الأصول التي يحصل لكل مؤمن وجودها، فالتطبع مساعدة عليها، والشريعة قائمة فيها، إذ مطلوبها تقوية اليقين وتحقيقه بأعمال المتقين»<sup>2</sup>.

ويقول ابن عياد الشاذلي أيضا في بيان الفرق بين طريق الشاذلية وطريق الغزالي في المعرفة، ومبيناً اختصاص الشاذلية بالجذب ما نصه: «وأما علم الأحوال والمنازلات وما يجري فيها من آداب ومعاملات، وذلك هو الذي اختص به أهل هذا الشأن، فللناس فيه طريقان: طريق رؤية الحق من أول قدم، والعمل على ذلك بالانحياز إليه - يقصد إلى الحق -، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم، وطريق رؤية النفس واطّلاع الحق عليها والعمل على ذلك، وهي طريق الغزالي ومن جرى مجراه، وكل منهما مستند للحديث: ﴿أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ﴾ وهذا للأولين أي الشاذلية، ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ﴾ هذا للآخرين - يقصد الغزالي ومن جرى مجراه -»<sup>3</sup>.

1- أحمد زروق: هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي (تـ 899هـ)، من أهل المغرب قرأ بمصر وتوفي في تكرين من طرابلس المغرب. الموسوعة الصوفية رقم الترجمة 152.

2- زروق أحمد أبو العباس (تـ 899هـ)، قواعد التصوف وأصوله، مراجعة محمد زهدي النجار، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية 1976م، القاعدة رقم 56.

3- ابن عياد محمد بن إبراهيم النفري الرندي الشاذلي (تـ 792هـ)، المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، تحقيق: أحمد المزيدي الحسيني، سوريا حلب: دار القلم العربي، الطبعة الأولى 1422هـ 2002م، ص 62-61.

والنتيجة أن فهم ابن عطاء الله السكندري في المعرفة من ناحية، لا يُخرج المعرفة الاستدلالية العقلية التي ينتقل فيها الذهن من معنى إلى معنى عن مجال التصوف بالكلية، بل يعتبرها حالا لسالك الطريق الصوفي، وغاية ما في الأمر أنها أقل كمالا من المعرفة الشهودية التي يتحقق بها المجذوب كشفًا، وبهذا لا يحقّ من شأن العقل على نحو ما يحقّ من شأنه كثير من الصوفية، ومن ناحية أخرى يجعل معرفة المجذوب بالله بمحض عناية الله وإرادته، التي شاءت أن يطوى له الطريق كله من أوله إلى آخره، وبذا يبرز ابن عطاء الله في نظرية المعرفة الصوفية فكرة حصول هذه المعرفة في بداية الطريق، لا حصولها في نهايته كما يذهب إليه الغزالي وغيره من الصوفية.